«الحضارة هي سباق بين التربية والكارثة»

هـ . ج. ويلز

الفصل الثاني

الرائي والمدرسة

ماذا يجب علينا أن نعلم شبابنا؟ وأي شباب؟ و كيف؟ ولماذا؟ وأين؟

هـذه الأسئلة الكبـيرة المتعلقة بشكل ومحتوى النظـام التعليمي هي في مركز الاهتمام لـكل تقييم للتعليم، وتزداد أهميته كلما عاشت مجتمعاتنا تغيرات سريعة وغير قابلة للتراجع.

هل المدرسة قادرة على فعل كل شيء؟

حتـى زمن قريب كان توزع المهام بين المدرسـة والعائلة واضحاً، ورغم كـون هذا التقسيم مضحكاً قليـلاً، ولكنه كان جلياً: فالتربية تعود للأبوين بينمـا يعود التعليم للمدرسين، وبما أن كل واحـد كان حريصاً على القيام بمهمته (أن ينظف أمام بيته)، كان الأطفال محميين.

ورغم ذلـك ففي نهاية الستينات أظهر استطـلاع أجري في بلجيكا أن من أصل مئة معلومة موجودة عند الأطفال في نهاية دراستهم في المدارس، حصل هؤلاء الأطفال على اثني عشر معلومة فقط عن طريق المدرسة، أما التسعة أعشار الباقية فمصدرها الأهل والأصدقاء، والشارع وقليلاً الرائي حتى في ذلك الوقت.

هـذه الملاحظـة المذهلة لم تصدم كثـيراً أو قليلاً الأوسـاط السياسية والمدرسـية، كان المربون يؤكدون أن دور المدرسـة هو التزويد «بالوسـائل»

ـ القراءة، الكتابة، الحساب، العد ـ الخاصة، والتي تسمح بمجرد امتلاكها لكل شخص أن ينطلق حسب رغباته في اكتشاف المعرفة.

فلم تكن المدرسة في ذلك الوقت تشكل موضوعاً انتخابياً مهماً بالنسبة للسياسي، وكانت الاثنى عشر بالمئة من المعلومات المذكورة آنفاً كافية لتأمين: التعليم المدني ـ الجغرافيا، التاريخ الوطني ـ والحد الأدنى من الثقافة الوطنية التي تخلق عبقرية الشعوب، وتؤمن استمرارية مؤسساتها، سواء كانت إدارية أو اجتماعية أو اقتصادية، شهدت الستينات تعاظم ظاهرة عمل المرأة خارج المنزل، أما النساء اللواتي أُعتبرن متطرفات أو أمهات غير رزينات في سنوات ما بعد الحرب، أصبحت المتزوجات منهن أمهات الأطفال العاملات بأجر تشكلن الغالبية في مجتمعنا المعتبر، مجتمع رفاهية.

وصحيح أن في بعض الأوساط غير الميسورة أصبح الحصول على السيارة، وقضاء الإجازة خارج البلاد، أو امتلاك جهاز الستيريو، أو امتلاك الشقة، وباختصار الوصول للنجاح الاجتماعي الظاهري، لا يتحقق إلا بوجود مرتبين يصلان في نهاية الشهر.

سواء كان عملها وراء مكتب، أو على سلسلة التجميع في معمل، أو على صندوق المتاجر الكبيرة، لم تعد المرأة قادرة على القيام بدورها المزدوج كما سبق لها أن فعلت.

وهكذا أُنيط بالمدرسة رويداً رويداً كمية من الواجبات التعليمية التي قبلها المدرسون مسرورين بكثير من الحماس وعدم الوعي بثقلها بآن واحد. وبحسب المناطق أو البلدان يمكننا أن نذكر اعتباطياً: التربية

الدينيـة، وقواعد المـرور، والثقافـة الصحية والإعلاميـة، وثقافة التبادل الحضـاري، والثقافة الغنية، كل التعلم، والتدريـب والتوجيه والتهيئة التي أضيفـت للفـروع التقليدية للتعليـم، والتـي أصبحت بدورهـا أكثر حمداً وتعقيداً، مما جعل مهمة المدرسة صعبة للغاية إن لم تكن مستحيلة.

وتحت شعار تكافؤ الفرص، فإن السلطات السياسية لم تطالب المؤسسة التعليمية بتعويض التقصير التربوي من قبل الأبوين فقط، بل حملتها هذه المهـام الجديدة، مع البـدء بإدخال الأطفال للمدارس باكراً، ولوعي هذه السلطات بالنمو المطـرد للقطاع الثالث (فئة من السكان تعمل في التجارة والخدمـات والتأمينات... إلـخ). الذي يتطلب ثقافة عامـة واتقاناً للغات الرمزيـة، فإنها دعت لبذل جهـد كبير في مجال التأهيل النظري للشباب. إن إطالـة الدراسـة والمشـروع الفرنسي الطمـوح الهـادف إلى 80% من حاملـي الشهادة الثانوية كانا النتيجتين الأكـثر وضوحاً، كل هذه الأسباب سواء كانت جيدة أو سيئة تفسر جزئياً الازدواجية في سياسة المدرسة التي تدعي أنها مكان التعارف وتفتح المواهب و احترام الطالب، والتأهيل الذي أصبح أكثر فأكثر تعقيداً، والاصطفاء ومنح الشهادات، وهي بِنفس الوقت مـكان طبيعي منطقي للفشل والإخفاق، نعم، ولكـن أين دور الرائي في كل هذا؟صـبراً فنحن نكاد نوصلكم لهذا! ولكن بـدا لنا مهماً في هذا الفصل المخصصـص للرائي التثقيفـي، أن نصف بسرعة كبـيرة الوسط المدرسي و الاجتماعـي الاقتصـادي للسنـوات الثلاثـين الأخيرة التـي شهدت ظهور الظواهـر التي ذكرت أعـلاه، وبنفس الوقت وبشكل مـوازٍ الولادة والتطور والتأصل العجيب لوجود الشاشة الصغيرة ضمن العائلة.

الرائي يكذب!

أصبح مقدمو البرامج التلفازية ذوي شعبية كبيرة هذه الأيام. فهل المشاهدون بحاجة لنساعدهم على فك رموز الصورة؟

هذا ممكن، فقد أصبح الرائي هو ملاذ الجميع وأي شيء: الثقافة والدعاية والسياسة في جو من الفوضى، وما يهمني هو اعتبار الرائي كمرآة، أو كمبرر للاستهزاء من قيمنا.

هل تحبون الرائي؟

ودعوني أطرح السؤال بصيغة معاكسة: هل الرائي يحبني؟

لا أعتقد ذلك، فلدي انطباع بأنه لا يعتبرني مواطناً مسؤولاً. فنشرة الأخبار تحاول أن تجعلنا نعتقد بأن الصورة تمثل الحقيقة. وهذا تلاعب، فأنا إذا كنت أحب السينما كثيراً فذلك لأن الصورة متوفرة فيها ككذبة بدايةً .....

أقوال حصل عليها بيير غرو جان، ونشرت في جريدة Le Nouveau Quotidien (اليومية الجديدة) بتاريخ 12 آذار 1994م.

مستخلصة من مقابلة مع ألان ريمون مقدم برامج في تلفاز T 1 rama

تضارب وجهتي نظر

الأرقام والإحصاءات لا تريد أن تقول كل شيء، ولكنها تبقى معبرة، فعندما نكتشف أن الطفل الأمريكي يقضي تقريباً أمام الرائي نفس الوقت الذي يقضيه على مقعد الدراسة، وبدون شك أكبر بكثير من الوقت الذي يقضيه بالاتصال المباشر مع والديه، مع العلم بأن التلقين هو كل شيء بالنسبة للطفل.

وبغض النظر عن طبيعة العلاقة النوعية والعاطفية، فإننا نتجرأ ونؤكد أن بالإضافة للثنائية التربوية التقليدية المتمثلة بالآباء والمدرسين، أُضيف بدافع المتعة وبحكم السهولة شريك ثالث يعرض صور الغث والسمين، متعاون حاضر واقتصادي وسهل الاستعمال هو الرائي.

سيرى الطيبون في الرائي نعمة: فبوجود ثلاثة يمكننا دائماً أن نعمل أفضل مما نعمله بوجود اثنين! فنظام تربوي يعتمد على ثلاثة أسس متينة لا يمكن له إلا أن يكون أكثر ثباتاً، ويساعد على توزيع المهام التربوية والتعليمية والتثقيفية بحسب قواعد جديدة، إن هذا يجعلنا ننسى ـ كما يؤكد برنار شارلو في كتابه «المدرسة في طور التحول» ـ أن «المجتمع في حمأة الحماس الثوري نادراً ما يعيد النظر جذرياً في التربية، ويقلب الصفحة ليكتب خطة تعليمية جديدة تماماً على صفحة بيضاء خالية، ففي الحياة الاجتماعية الطبيعية، لا تُفرض الأشكال التربوية فرضاً، ولكنها تتطور ببطء يعكس تطور سوق العمل والعلاقات الاجتماعية، وتوجهاتهما البطيئة وتناقضاتهما ونزاعاتهما، كما يحصل للنظام التربوي الذي تُفلت بعض مؤسساته كالعائلة والشركة والكنيسة أو وسائل الإعلام بعيداً عن السيطرة المباشرة للسلطة السياسية، ولكنها بالتدريج تتغير ويعاد تركيبها وتُكمَّل دون أن تُمحى، ويعاد بناؤها بالكامل وفق مخطط جديد، فالجديد يُبنى على القديم مخالفاً ومكملاً له بآن واحد»، وهكذا تقف المدرسة والرائي في موقعي التناقض والتضاد، هذان العالمان المميزان يعملان بحسب منطقين مختلفين تماماً:

- مبدأ المدرسة التعليمي الذي يشجع غالباً الشرح والتكرار والتفاعل، ويعتمد على الذاكرة، ويؤكد على بذل الجهد وتنمية الذكاء بهدف الحصول على شهادة ونجاح شخصي.

- مبـدأ المسموع المرئـي والتلفاز الذي يهدف أولاً إلى استرعاء النظر علـى حسـاب الانتباه أو التركيـز، والذي يسـيء استخدام مثيرات العواطف، ويحاول أن يحصل على الإعجاب ويأسر المشاهد ويهدف للتسلية فقط.

ولكن ألا يمكن بالعقلانية والإرادة إيجاد طريقة لتقريب هذين العالمين المختلفين تماماً و المتكاملين والضروريين للتأهيل قليلاً، في الواقع تمركزت العلاقة حتى الآن حول محورين:

- التربية عن طريـق وسائل الإعلام، والتي في حيز المدرسة تريد من الطفل أن يصبح مشاهداً ناقداً قادراً على استخدام الرائي كوسيلة للحصول على المعلومة وكمنفذ على الثقافة.
- التلفـاز التربـوي الـذي يـزود بوثائـق صالحـة لتطويـر المهارات المدرسية. ولكن يجب ألا ننسى أن الرائي يبقى قبل كل شيء جهازاً «منزليـاً عائلياً» ومن ثم خاص، وذلك يعنـي أن كل تربية إعلامية وكل تلفـاز تربـوي يجب أن يكونـوا خاضعين إلى حـد كبير لمواقف وعادات الأهل.

التربية عبر وسائل الإعلام

إن الحاجة لتأهيل الشباب عن طريق وسائل الإعلام أُريد لها أن تكون ضـرورة تعليمية منذ السبعينات من القـرن الماضي، ويدخل هذا الأمر في سياق إرادة سياسية أولاً لتحديث محتوى البرامج المدرسية الجامدة قليلاً، وربما تزويد المدرسة بوسائل جديدة للتعليم، كم هو مُوال سياسي ـ غنائي جميل يريد أن يصدح بـه الإيمان بالتقنيات الحديثة، وهكذا أعلن أندريه مالـرو أثناء الحملة الانتخابية في عام 1974 على المحطة الفرنسية الأولى

TF1 عـن ثورة حقيقية بالتعليم عن طريق الرائـي والحاسوب: «استبدال الكتـاب بالحاسوب، يجعـل الطفل يتمتع بدل أن يمـل، ويكون ذلك بالبدء منـذ المراحـل الأولى للمدرسـة وحتى التعليـم العالي باستخـدام مزدوج للرائي والحواسيب».

في معظم التجارب، يريد التعليم عبر الإعلام الوصول لهدفين ساميين:

- خلق قدرات تحليلية وفهم لنظام الاتصال بالجماهير.
- إسداء خدمة للطلاب مواطني ومبدعي المستقبل بتزويدهم بإمكانية التعبير عن أنفسهم عن طريق وسائل الإعلام المسموعة المرئية.

لِنُعَرف

التلفاز:

كلمـة مكونة مـن مقطـع أول Télé ومعنـاه (بعيـد)، ومقطع ثانٍ Visio ومعناه (رؤية).

نقـل بالأمـواج الكهرطيسيـة لصـور أشيـاء جامـدة أو متحركة. فمستقبلات ومرسـلات التلفاز تستقبل وتصدر في نفس الوقت أصواتاً كذلك، وهكذا يصبح التعبير الدقيق عن النظام «المذياع المتلفز»

1) يمكـن للمذيـاع أن يُسمَعَ بـأذن شاردة، بينمـا يستنفر التلفاز الحاستـين الأساسيتـين (السمـع والبصـر)، ويستحـوذ على الانتبـاه تماماً، فأحيانـاً يكون الصوت هو بـؤرة التركيز، ولكن بالإجمال فإن المسموع المرئي لا يترك مجالاً للشرود.

(J. Cazeneuve,in Diog ne, juill- sapt.1962,P.H146)

2) لا نجد الطبقات الاجتماعية الموسرة والمثقفة في الطليعة عندما نحصي العائلات التي تمتلك جهازاً رائياً.

(Id., " les lites contrela t l v.", in la table ronde, mars 1966,P.90)

3) لُوحظ في الطبقات الغنية المثقفة أن الرائي غير موجود في غرفة الجلوس، وأنه أُبعد إلى غرف أخرى أقل أهمية حيث لا يمكن للأصدقاء الذين نستقبلهم أن يروه، وبالإجمال فهو قطعة أثاث مشبوهة نشعر بالخجل من اقتنائها، وبالمقابل ففي الطبقات الاجتماعية المتواضعة فإن اقتناء الرائي عُدَّ وما زال يُعَدُّ رمزاً للارتقاء الاجتماعي. (Ibid.,98)

4) لا شك أن الرائي يثقف لأنه يقرب المسافات ويجعل الغريب مألوفاً، وأكيد أنه يخفف قسوة تقاعد المسنين، ويُبقي الزوج المعتاد على ارتياد الملاهي في البيت. ولكن «الخلايا الرمادية الصغيرة» التعبير المفضل لهيركول بوارو تتخدر، وينام الحس النقدي.

(F.Fernand- laurent, Morale et tyrannies, 1718-. Ed. Ouvr., 1967)

5) لاشك بأن المنازل الخاوية من الكتب هي التي تنمو على سطحها مستقبلات التلفاز، وهكذا فإن أستاذ اللغة أصبح من الواجب عليه أن يكون كذلك أستاذ صوت وصورة.

(J.Delannoy, in Cahiers P dag., mars 1970,p.11.)

مقاطع مستخلصة من قاموس اللغة التعليمية لبول فول كييه.

Tir du Dictionnaire de la langue p dagogique de Paul Fouliqui . PUF. 1991.

ولكـن الأمـر الأهم هـو جعـل الطالب أكـثر قدرة علـى رؤيـة التلفاز بعـين الناقـد، وأن نساعده في خياراتـه، وأن نتيح له الفرصـة أن يحتفظ باستقلاليته فيما يتعلق بالقيم والمثل المنقولة.

إن هـذا الهدف الـذي يسعى للمساواة يدخل تماماً في سياق الحديث التقليدي عن مدرسة تتصف بالكرم والديموقراطية وترغب بإتاحة الفرص للجميع عن طريق تعويض التقصير العائلي.

للوصـول إلى هذه الأهـداف الطموحة، لابـد أن تكـون المدرسة قادرة علـى جعل الأطفـال يكتسبون معارف جديـدة متعلقة بالتلفـاز، وأن تغني مفرداتهـم، وتطور قدرتهم علـى الملاحظة، وتجعلهـم يستوعبون أن كون الشخص مشاهداً لا يعني أن يكون متلقياً، وأن هناك طرقاً أخرى للترفيه عن النفسـ، ومفاتيح أخرى للمعرفة والثقافة.... وعندها، وفقط عندها، تكـون المدرسة قـد سمحت بتغيير موقف الطلاب مـن التلفاز، إنه برنامج كبير جداً بالنسبة لمعظم المدرسين الذين لم يُهَيَّؤوا أبداً، أو كان تجهيزهم سيئـاً للقيام بهـذه المهمة الجديدة، إنهم أكثر ضيقـاً من تلامذتهم، فهم لا يجـدون كتباً مخصصـة لتعليمهم إنجاز هذه المهمـة، ولأنهم تنقصهم القواعد النظرية لها التي لم توجد حتى الآن، وخاصة الدافع للوقوف أمام وسيلة الإعلام هذه التي يعتبرونها و سيبقون منافساً لهم.

ومـن ناحية أخرى ـ وكما يوضح الباحثـان الفنلنديان مينكينن ونوردن شهرنغ ـ فإن التعليم عبر وسائل الإعلام «يقحم مسائل أخلاقية ومسائل أخرى ذات علاقة بالآراء الشخصية يمكن لها أن تخلق نزاعاً بين المدرس والطالـب أو أهله..... فالأهل قد يشعروا بتوجيهـات الأساتذة أو سلوكهم كتدخل سافر في حياتهم الخاصة».

وهكذا ورغم أن بعض التجارب بدت مثيرة للاهتمام في بعض جوانبها، فإن التعليم عن طريق الإعلام فقد التعاطف معه تماماً في أوروبا، إن عدم وجود دوافع حقيقية لدى المدرسين ليس التفسير الوحيد لهذا الفشل، ففي فرنسا وسويسرا وفنلندا والدانمارك والنمسا وأماكن أخرى يمكننا ملاحظة النقص الدائم في الإمكانيات المخصصة المتاحة، ولن نركز على سلبية المؤسسات التعليمية التي لا تقصر فقط في تأهيل المدرسين، بل لا تترك أي مجال في البرامج المدرسية الكثيفة عبثاً «لقراءة التلفاز» قراءة حقيقة في الصف.

تعلم مشاهدة الصور

نريد أن ننتقل من فك الرموز إلى التعليم، هل تعتقدون أن بإمكاننا أن نتعلم مشاهدة التلفاز؟

إنني شديد القناعة بذلك، و إلا لما كنت كتبت هذا الكتاب الذي يعتبر طريقة توضيحية تجريبية لهذا الموضوع، إن كل مشهد يتبع مقصداً تعليمياً، وعلى محطات التلفاز أن تقوم بنفس الجهد، وسيكون هذا برأيي إجراءً اجتماعياً صحياً، ويمكننا دائماً أن نحلم بولادة مستبعدة لبرنامج يكون بنفس الوقت منقذاً ومهدماً للأداة نفسها.

وقد أعطيتَ المثال على ذلك عندما انتهزت فرصة وجودك في برنامج برنار بيفو لتعلق على الأثير على لقطات مختارة من نشرة أخبار الساعة الثامنة مساءً.

لقد تمتعت بتحليل واحدة أو اثنتين من الخدع التلفازية، واحدة منها نمطية تظهر إدوار بالادور في مطار جنيف لحظة صعوده طائرة

عادية للعودة إلى باريس بعد أن قضى نهاية الأسبوع في منزله في شاموني للاستجمام، يريد التقرير المُصوَر أن يقنعنا أن رئيس الوزراء يسافر دون مرافقة كشخص عادي بغرض الاقتصاد في النفقات. إنه تقرير من صنع مخادعين، فكل صورة خضعت لتعديلات مُسبقة. ففي إحداها يمكننا أن نلمح واحداً من حرس بالادور الشخصيين خارجاً بسرعة من حيز الصورة ليكون الخداع كاملاً، وبقي هذا الخداع ناجحاً إلى أن علمنا لاحقاً أن نصف المسافرين العاديين طلب منهم استخدام رحلة طيران أخرى للسماح لمرافقة رئيس الوزراء بالصعود معه إلى الطائرة.

ورغم أن الفرصة كانت سانحة للقيام ببعض التعليم على مشاهدة التلفاز في برنامج السيد بيفو الذي يدوم أقل من ساعة، فقد تحول دانيل شنيدرمان خلالها ولسخرية القدر إلى مادة تلفازية صرفة، لقد تمكنت خلال هذا الظهور الوحيد على التلفاز أن استشعر ومن الداخل حجم الآلية التي تجعل من الرائي ـ عندما نرزح تحت نيره ـ أداة قوية للدعاية الشخصية.

وها أنت أصبحت بدورك شخصية إعلامية يتلقف الناس مقالتك اليومية في صحيفة لوموند: ويتخاطفون كتبك، فكيف تتعامل مع هذا النجاح؟

بكثير من الخوف والقلق.

تيري ميرتونا، جريدة جنيف، 22-23 كانون ثاني 1994. مستخلص من مقابلة مع دانييل شنيدرمان، ناقد تلفازي ومؤلف كتاب وقفات مع الصور (Arr ts sur images) المنشور في دار النشر (Fayard).

ودون رغبة سياسية حقيقية، فإن التعليم عن طريق الإعلام سيبقى ولزمن طويل فرعاً ثانوياً و فلوكلورياً لا يلقى إلا دعماً هامشياً وفردياً. وهذا مؤسف حقاً لأن هذا الأمر كان فرصة للمدرسة للخروج من عزلتها بين أربعة جدران، ومن عالمها العقيم إلى العالم الخارجي، مُبادِرَة للقاء الطلاب والدفاع عن مصالحهم، لأننا شئنا أم أبينا فإن التلفاز يتدخل بشكل أكثر سوءاً منه جُودة في بناء ثقافة الأطفال، وذلك عائد لنقص في المعلومات والتأهيل، يجد الأطفال في التلفاز قُدرات صُورية، وأمثلة يحتذونها في لَعبِهم وعلاقاتهم الاجتماعية، يمكن لها أن تؤثر بقوة ـ كما سنرى لاحقاً ـ في أدوارهم في الحياة وفي سلوكهم.

إن التنكر للتعليم الإعلامي يسهم في تعميق الهوة التي تفصل بين تطلعات المدرسة وتطلعات من يرتادها.

فباستثناء التعليم عبر الإعلام المثالي و المنهجي تتجاهل المدرسة وجود التلفاز تماماً، هذا الموضوع لا يزيد إلا قوة نظرة الأطفال للمدرسة كمؤسسة مصطنعة، و للمدرس كشخص قادم من كوكب آخر، وذلك بعلاقتهما مع واقع الأطفال اليومي.

تلخص ليليان لورسا المختصة بعلم النفس، ومديرة الأبحاث في المركز الوطني للبحث العلمي CNRS، إحدى دراساتها العديدة بقولها: «في المدرسة لا نتكلم عن الرائي مع المُدرسة، وأحياناً يؤدي حدث مؤلم لأن يتكلم الأطفال عما شاهدوه في الصف، ولكن هذا نادر كذلك، وهذا يدعو البعض للتساؤل عما إذا كانت المُدرسة تمتلك تلفازاً، وأنها تعيش بعيداً عن أجواء الذين يشاهدونه».

التلفاز التربوي

إذا كانت كلمة «تلفاز» ما زالت موضع جدل في معظم المدارس من الابتدائية وحتى الثانوية، فكيف يمكن أن نتصور أن تستخدم المدرسة في يوم من الأيام هذه الوسيلة الإعلامية لتوصيل المعارف، في سويسرا مثلاً تمتلك كل المؤسسات المدرسية تقريباً جهاز تلفاز وفيديو و ربما كاميرا فيديو، ولكننا نادراً ما نشاهد درساً كاملاً يعطى أمام شاشة الرائي. إن مشاهدة برنامج يبقى شيئاً استثنائياً، ولا يُبرر إلا إذا كان محتوى البرنامج يتماشى مع عنصر محدد من برامج المدرسة، أو إذا كان المُدرس من عشاق متابعة النقل المباشر لمباراة كرة قدم، أو مسابقات الهبوط السريع على الثلج، أو لقضاء الوقت دون تعب في نهاية العام الدراسي.

باستثناء الاستعمال الأول، فإن استخدام الرائي في الحصة الدراسية ينقصه الكثير من النُبل والموافقة.

جهاز الفيديو: الضالة التي نبحث عنها؟

لا أحد يستطيع أن ينكر أنه ورغم كون الأمر نادراً، ومروره في ساعات بثٍ غير معتادة، فإن معظم الخمس أو السبع أو التسع محطات الناطقة بالفرنسية تبث وثائقيات يمكن للمشاهد أن يلتقطها دون دفع، وذلك في مجال القضايا الاجتماعية والسياسية والعلمية ذات الأهمية، هذه الأفلام الوثائقية قد تكون على درجة من الجدية والمصداقية والقدرة على توضيح مادة من المواد التعليمية تفوق من حيث حيويتها وقدرتها على التفعيل والتجاوب بكثير خطاب الأستاذ التقليدي الممل.

إن استخدام الفيديو اليوم لا يسمح فقط بالتحرر من قيود البرنامج الزمني الدقيق لبث البرامج، بل يسمح كذلك برؤيا مسبقة وتحضير ضروري للاستفادة منه تعليمياً، إضافة إلى إمكانية العودة إلى الوراء وإيقاف الصورة، والتوقف المباشر عن العرض للرد المباشر على أسئلة الطلاب، وتقديم معلومة إضافية، أو ربط المشهد بمعلومة مكتسبة سابقاً، وهذه الأمور هي الأهم، إن «الاستفادة التعليمية» للمدرسة من الرائي لا تحتاج إلى تأهيل خاص للمدرسين، ولا إلى إنشاء هيئة ثنائية الجانب تجمع رجال التعليم والعاملين في التلفاز.

ولا تحتاج كذلك لإيجاد بُنى تعليمية جديدة، أو إمكانات مالية مهمة، ولا حتى تأسيس مجموعة ضغط (لوبي) من المربين الرسميين لممارسة الضغط على منتجي التلفاز، لإنتاج برامج موجهة لشريحة عمرية معينة أو ذات علاقة ببرنامج دراسي محدد، وباختصار كل ما سبب الفشل الذريع للتلفاز المدرسي.

لسنا بحاجة لكل هذا، وما على المدرس سوى أن يختار ما يريد من البث، وأن يضغط على مفتاحين أو ثلاثة، وأن يكون مكتبة فيديو صالحة للاستخدام المهني وعظيمة الفائدة، وهذه بدون شك طريقة آمنة ذكية غير مكلفة ومُرضية لبعث الحياة في التعليم وشحذ همم التلاميذ!

ولا شيء يمنع الآباء من القيام بنفس العمل، وأن يقدموا لأبنائهم في عطلاتهم المدرسية الطويلة الماطرة غذاءً تلفازياً مختلفاً عن برنامج «دوروتيه» دائم الوجود، أو حفل توزيع الجوائز المعروض في منتصف الليل، والمُسجل بناء على طلب الوالد الذي كان غائباً ـ أثناء عرضه على التلفاز ـ بسبب حضوره اجتماعاً إدارياً!

إن ظهور جهاز الفيديو واستخدامه المناسب لأغراض تعليمية وتثقيفية كان بوسعه أن يسمح بولادة تلفاز تعليمي حقيقي يستفاد منه في غرف الجلوس العائلية، وفي المدرسة إلى جانب لوح الحائط الأسود، وإن هذا لم يحصل لأن الرائي بقي في نظر الآباء وكثير من المدرسين أعجوبة اللحظة الراهنة: فنحن نشاهد ما يعرض في نفس اللحظة، ونقلب المحطات كلٌّ بحسب رغبته من جهة، ومن جهة ثانية بقي الرائي وسيلة هرب من الواقع وتسلية رخيصة، هاتان النظريتان مأخوذتان معاً أو بشكل منفصل تجعل من الفيديو أداة لاستخدام وحيد: فنحن لا نسجل سوى أفلام التسلية وبرامج المنوعات، وأحياناً نستأجر شريط فيديو من إحدى متاجر أشرطة الفيديو التي انتشرت في كل المدن، إن النشر المنتظم في بعض الجرائد «للخمسين الأولى» ترتيباً بين الأشرطة المستأجرة يبين لنا شغف الناس بهذه المسابقات: لا شيء للأفلام الوثائقية أو التثقيفية.

ولا شك أن الرائي في نظر معظم معاصرينا ليست له قيمة تعليمية. وهل نشارك فرانسوا ماريه وجهة نظره الإعلامية المُزدرية، والتي تؤكد أنه لا يمكن أن يكون للرائي هدف تربوي، وأن التلفاز المدرسي هو أكثر قرباً من المدرسة المصورة بالتلفاز منه إلى التلفاز الحقيقي، وأن البرامج التثقيفية مثل «افتح يا سمسم» أو «هكذا كانت الحياة» ليست سوى تسلية تثقيفية.

إن السيد مارييه المدرس يُظهر من خلال ما ذُكر عدم التقدير الذي يشاطره إياه زملاؤه للاستخدام الممكن للتلفاز، ودون الرغبة في البحث عن التناقض، نجده يدلي بآراء بعيدة تماماً عن بعض زملائه في كتابه المستفز «دعوهم يشاهدوا الرائي». فإذا كان العنوان وحده كافياً لإراحة

ضمير معظم الآباء، ولضمان التسويق في المكتبات، فإن المحتوى يُبدي بوضوح عدم اكتراث، وأفكاراً محافظة بسيطة.

«يحتاج الأطفال من الأجيال الأولى التي تدخل سلك التعليم إلى مدرسة تعليمية ولمدرسين يقومون بمهمة التعليم، لابد للوصول إلى مدرسة تقدمية من تطوير طريقة تعليم محافظة بالضرورة، فمن خلال تعليم الأطفال القراءة جيداً تساعدهم المدرسة في الاختيار بين الكتاب والرائي، وعبر تزويدهم بقواعد ثقافية متينة تمكنهم من تقييم وهضم المعلومات التي يتلقونها عن طريق التلفاز، وتجعله بذلك تعليمياً»

التدريب

يجب أن يتأقلم التعليم مع متطلبات الدماغ

بعد عشر سنوات من مغادرة المدرسة من يستطيع أن يتذكر بالتفصيل درس التاريخ عن الثورة الفرنسية؟ السيد بيير ماجيستريتي أستاذ الفيزيولوجيا العصبية في جامعة لوزان يتحدى أياً كان في دحض هذه الظاهرة. «يسجل الطالب المادة في ذاكرته إلى حد كبير واضعاً في حسبانه الامتحان، ولكن الطرق التي نستخدمها لنقل المعلومة لا تضمن لنا أن يتذكرها بعد سنتين أو ثلاث».

وبحسب رأيه فإن طريقة التعليم لا تركز كفاية على متطلبات الدماغ.

«تُعرض كل معلومة مجزأة كما لو كانت في دُروج صغيرة، بينما يعمل دماغنا بنظام الشبكات، وبطريقة ترابطية وبحيث أن كل معلومة مرتبطة بمئات المعلومات الأخرى». وبطريقة ما يقوم نظامنا التعليمي «بتثبيط التعلم».

ولذلك طور بيير ماجيستريتي المُولع بآليات التدريب بمساعدة أحد مُساعديه القُدامى بهرام زيربور نظام تعليم فيزيولوجي عصبي لطلاب السنة الأولى في كلية طب لوزان . ويعتمد نظامه على الاكتشافات الأخيرة في مجال المعلوماتية والعلوم الطبية العصبية. واستهوت نظريته المربين. (...)

ما الفكرة الدقيقة التي تصنع الفرق؟ تعتمد الطريقة على حقيقة أن الدماغ يعمل بالتفكير الترابطي، فكل شيء موجود من خلال علاقته بشيء آخر، وانطلاقاً من هذا المبدأ بنى بيير ماجيستريتي دروسه بناءً على برنامج حاسوبي سمعي بصري شديد التطور (تحريك، فيديو) يسمح بربط عدد غير محدود من المعلومات.

إن طريقته المُعَدَّة لتوضيح أسرار الفيزيولوجيا العصبية للطلاب صالحة للاستخدام في مجالات أخرى، تخيلوا درس تاريخ كالآتي: على الشاشة يظهر ماراً وقد أغتيل في حوض استحمامه، ويستطيع الطالب أن يضغط على أي عنصر من عناصر الصورة ولنفترض النص الذي كان يقرؤه السياسي قبل موته، ثم بضغطة على أي كلمة في الصفحة إذا اختار كلمة «سياسة» فسيقوم برنامج Hyper texte بوصف المناخ السياسي لفرنسا في تلك الحقبة، و بإمكانه أن يعود للصورة ويضغط على باب الحمام، ليكتشف خلفه شارلوت كورديه التي انتهت لتوها من قتله، بإمكان الطالب أن يعرف من هي، ومن خلال الشرح الذي يُعطى له فإنه إذا ضغط على كلمة امرأة فسيُشرح له كذلك ماذا كانت أدوارهن في تلك الحقبة ...إلخ، لا توجد حدود، فكل ترابط للأفكار مسموح به.

«كل مـا يحتـاج إليه المخ ليزيد من قدرتـه، إن الدروس التقليدية تُجبر المدرسين على عرض المادة بطريقة جافة متتابعة ومُجزأة.

وتنساب المادة فصلاً بعد فصل وعبارة بعد عبارة، ولكن تأثيرها علـى المخ غير فاعـل، كما لو أننا نجبر رجلاً قصـير القامة جداً أن يرتـب كتبه في مكتبـة عالية، إننا نعـرف مسبقاً أنه لـن يتعب نفسه ليصعـد على دَرَجٍ صغير لتناول كتبه، وأنه سيفقد قريباً حتى الشعور بوجود مواد في القسم العلوي من مكتبته». (...)

بيا تريس شاد، L` Hebdo، كانون الثاني 1994

«نظامنا التعليمي يمنع التعلم»

مـن المؤكد اليوم أنـه لا يمكننا انتظار شيء كبير مـن التلفاز التعليمي باستثناء بلدان العالم الثالث التي ما زال انتظام الأطفال في المدارس فيها يتعثر في خطواته الأولى.

إن البرامـج الخاصـة الموجهـة للاستعمـال المدرسي حصـراً الثقيلة والمكلفة جداً والدقيقة للغاية، والتي لا تجذب أياً من المعلنين المحتملين، قد اختفت تقريباً من الشاشة في معظم البلدان الصناعية.

وإذا كانـت لا تـزال هناك بضعة ساعات في الشهـر، فذلك لأن المذياع والتلفـاز التعليميين يشكلان جـزءاً من الواجبات القانونيـة أو الأخلاقية لمحطـات البث الرسميـة التابعة للدولة، وأنه ليس مـن السهل إلغاء خدمة يقوم عليها موظفو الدولة.

إن أسباب فشل هذا الزواج المتوقع بين المدرسة والرائي عديدة، ولندع رونيه دي بو يلخصها على طريقته: «لا يملك موظفو التعليم الوطني في فرنسا، والتعليم الحكومي في سويسرا الروماندية (مقاطعة في سويسرا يتكلمون فيها بالفرنسية) حقيقة أي خبرة في التعامل مع وسائل الإعلام، وإنهم يعتمدون في قراراتهم على نظريات وتقارير صادرة عن مجموعات المنتفعين، والفضائح تُخفيها لعبة المصالح السياسية، وباختصار فإن محطات التلفاز التي يريدها موظفو الدولة لا يمكن لها إلا أن تكون دوائر مغلقة».

المدرسة والتلفاز المنافس

باستثناء حالات نادرة يستغرب الإنسان التحفظ الكبير الذي يبديه كل المدرسين تجاه استخدام الرائي لأهداف تعليمية.

ويزيد استغرابنا لهذا الإجماع عند معرفتنا لتنوع الميول والاتجاهات في وسط المعلمين تنوعاً فريداً في الاهتمامات والرغبات والفلسفات، وخيارات الحياة التي تتراوح بين النضال النقابي العنيف، والاهتمام بعلم الطيور أو تقديس الرياضة، وبين النشاط السياسي متعدد التوجهات، والإدمان على الخمر مروراً بعزف الموسيقى والصيد النهري.

إن سنتين أو ثلاث أو أربع في المدارس العادية أو دور المعلمين ليست لها القدرة على معادلة وتساوي الطباع، ولله الحمد. ورغم ذلك فقد وُلد إجماع على إبعاد التلفاز عن صالة الدرس، أو استخدامه الضئيل جداً. صحيح أن وسائل الإعلام لا تُسهل استخدامها ضمن مجموعة: إن وجود دزينتين من التلاميذ متكدسة أمام شاشة قطرها 56، 67، أو 70 سم ليس مثالياً لرؤية جيدة للصورة، ولا لتسجيل الملاحظات، و لا يسمح بالحصول

علـى أقل درجة من النظام، فمـن جانب المدرس نجـد أن إعداده كمُوجه ومُحاسـب وفاعل يجب أن يتحقق بطريقة تجريبية، دون رقابة ودون وجود كتب مرجعية في هذا المجال، إضافة إلى أنه يجد صعوبة في أن يعرض على طلابه ساعة أو ساعتين من المشاهدة في الأسبوع، بينما يقوم هو بمشاهدة التلفاز من ثلاث إلى أربع ساعات في اليوم.

والأمـر الأهـم هـو أن المدرسـين يُبـدون الكثـير مـن الحـذر والشك بمستجدات مجتمع التسلية المكونة من الرفاهية واللذات الآنية والانتهازية والتُرهات... كل المكونات التي لا تتماشى مع المؤسسة التعليمية التي لا تقدر إلا العمـل والجهد، وهكذا فعلينـا أن نرى العلاقات بـين المدرسة والرائي علـى أنها علاقـات تضاد أكثر من كونها علاقات تنافـس، إنه تفرع ثنائي بين نظامين مختلفين مـن السلطة والواجبات يتخوف منه ميشيل بانيه في مجال الثنائيات الجدلية المتضادة.

تعارض بين المتعة والقسر

بينما تُقـدر المدرسة الجهد والعمل والنظام، يعتمد الرائي على قضايا كالمتعـة والاسترخـاء والهروب من الواقـع والبحث عـن السهولة، وعلاقة الطفل مع الرائي تعود أكثر إلى العاطفة والآنية أكثر من ارتباطها بالذكاء والتفكير.

تعارض بين المعرفة والخيال

إن كل نظريـة التعليـم مبنية على نقل المعرفة، إنـه نقل هرمي يحصل خطـوة خطوة عبر مراحل من التحصيل، وتعتمـد كل إستراتيجية التعليم

المدرسي على البرامج الدقيقة والثابتة: يجب الحصول على معلومة ما أولاً للانتقال لِلَّتي تليها.

ويُستهان بمتع اللهو لحساب قيم التعليم، ويُحصر الخيال والتخيل والصورة أو يُتخلص منها عند التلاميذ الكبار لحساب المعرفة والتعلم والعلم.

تعارض بين اللغة المنطوقة ولغة الصورة

تظل المدرسة مؤسسة للتعليم والتعبير والتواصل الشفوي المبرمج والمكتوب، إنها تشجع طريقة لغة الخطاب، وخاصة الاستماع وتشجع كذلك التبادل، وهكذا يسهل علينا وضعها كنقيض للرائي الذي يمثل طريقة للتعبير وحيدة الاتجاه تفرض الصورة، والسهولة دون خطاب بليغ، وسلبية المشاهد الذي لا يطلب منه أن يعبر عن أي شيء.

تعارض بين السلطة والاستقلالية

يهدف التلفاز إلى إرضاء الجميع في الوقت الذي يتوجه فيه إلى شريحة كبيرة من الناس بآن واحد، وليس بإمكانه ـ خلافاً للمدرسة ـ أن يختص وأن يتأقلم مع حاجات كل منهم، وأن يُراعي السرعة الخاصة بكل طالب، وأن يتوقف ويكرر ويعود إلى الوراء، إنه يعرض صُوره وإضاءته وتدفقه وآنيته واندفاعه، ويستسلم لرغبة المشاهد الحرة: ما أشاهده يهمني ويسليني إذاً أتابع مشاهدته، أو أنه عديم الجدوى إذاً فأنا أُقلب المحطات!

إن كل هذا يُعاكس الطبيعة المنظمة الانسيابية المبرمجة للمدرسة، حيث يحاول التعليم أن يزود بنفس المعلومات للجميع من خلال فرض تمارين تطبيقية تهدف إلى التحقق من المعلومة، وتسمح باستدراك الضعف

والتأهيل، وتُثَبِت المعرفة، وهكذا يمكننا استيعاب ما ينقله ستار وسلطان من أن 80.7% من المدرسين يعتقدون أن المعلومات التي يقدمها الرائي هي مبعثرة إلى حد كبير، فلا يستطيع الطفل الاستفادة منها، لا توجد منافسة بين المدرسة والرائي: فكل منهما يعمل حسب آليات مختلفة تماماً، وأهداف متباعدة جداً: إن خلاف الشكل والمضمون المذكور آنفاً يدل على الغيرة، ففرانسوا ماريه يؤكد قطعياً: «ليس على المدرسة أن تخاف من التلفاز أو أي فعالية ترفيهية لأنه لا يمكن الاستغناء عنها، ولكن يجب عليها أن تقوم بعملها وعملها فقط ولكن بشكل كامل، وليس عليها أن تتدخل في منافسة مع أول منافس مُزوّر يقف أمامها».

حتى إذا لم تكن المدرسة قادرة على فعل كل شيء، ولكن الثابت هو أن المهتمين بشؤون الأطفال لهم دور وعليهم مسؤولية يجب تحملها أمام التساؤلات الكبيرة التي يطرحها الرائي، إن الموقف الساذج الذي يتبناه العديد من المدرسين، والذي يتخلص بتحويل «مشكلة الرائي» على الأهل بدعوى أنها جزء من الحياة الخاصة للعائلة هو بنظرنا لا يمكن قبوله. فالمدرسة تتدخل دائماً في الحياة العائلية، ولا تمتنع بدافع عدم تعكيرها عن إبداء الملاحظات، وتقديم النتائج المدرسية والعلامات والشهادات، ونقوم أحياناً بهتك الحياة العائلية عن طريق فرض الوظائف المنزلية، والنفاق الذي يجمع بين الود والمرارة والعنف الذي تمارسه المدرسة ضد الأطفال، إذاً لماذا ترفض المؤسسة التعليمية أن يدخل الرائي الصف الدراسي، وأن تهتم به؟

كيف يكون ذلك؟ سنحاول أن نعطي بعض إمكانيات الحل في الفصل الأخير من الكتاب.

كان يا ما كان

في زمن الآمال العريضة

الرائـي المدرسـي ـ أ ـ في العـرف المعمول به: استخـدام التعليم لبرامج المذياع والتلفاز الحكوميين الفرنسيين.

ف. مسموع مرئي (تعليم ـ).

6) المذياع والتلفاز التعليمي بخلاف الهيئة الفرنسية للإذاعة والتلفاز لا يمكنهما تجاهل هذه الأولوية المهمة للتعليم: الوصول إلى التصور، وذلك إذا لم ترغب في تشكيل عقول تحكمها الشهوة.

(م. فوكيه في التعليم الحكومي، 27 نيسان 1967م الصفحة 32).

7) فعـل ما لا يستطيع المدرس فعله، بشرط تركه يفعل: ما عليه أن يفعل هذا ما يبدو لي أنه المبدأ الوحيد الذي يسمح بتعاون مثمر بـين التلفزيون التعليمي والتعليـم التقليدي. (ر. ماس في دفاتر التعليم ـ شباط 1969م، الصفحة 38)

8) إن استقبـال برامج التلفاز لا يريد أبداً طرد المدرس من صفه. بل على العكس فالتلفاز يتطلب وجود المدرس، ولكن بدور مُعدل قليـلاً لا يمكـن الاستغنـاء عنه. (ج. دوبـوا في دفاتـر التعليم، شباط 1969م. الصفحة 47.)

بول فولكيه. قاموس اللغة التعليمية. 1991م. PUF

الرجل: التلفاز
عبارة عن متعة
شخصية
المرأة: إنه يجعل
الإنسان أصماً!
الرجل:
ماذا؟
باريغ

«فوضى في الجسم وخطأ في التفكير يغذي بعضها
بعضاً، هذا ما ندعوه بالخيال الحقيقي».
آلان (1868م ـ 1951م)، نظام الفنون الجميلة.

الفصل الثالث

الآثار الحسية للتلفاز

إن الفصول الأربعة التالية التي تعالج تأثيرات الشاشة الصغيرة على الأطفال حُصرت ضمن حدود بطريقة اعتباطية نوعاً ما، فمن العبث محاولة إقامة حدود واضحة بين ما يخص الجسد أو النفس أو المجتمع أو الثقافة، وإذا كنا قد تبنينا هذا الفصل، فإنما يعود ذلك لأسباب عملية، وليس بقصد تبني نظرة مجزأة للطفل، وسيقوم القارئ عفوياً بإعادة توحيد هذه المجالات الأربعة، لعلمه بأن كل واحدة منها تتفاعل باستمرار مع الأخرى، وأن الموضوع الذي نعرضه يمكن له أن يوجد في هذا الفصل أو ذاك من الكتاب غير الذي وضعناه فيه..

بعد توضيح هذا، يجب توجيه تحذير آخر قبل تهيئة محاكمة التلفاز، وانعكاساته على صحة الأطفال، من خلال تسليط الضوء على هذه الوسيلة الإعلامية، فإننا سنكتشف بالتأكيد بعض الأمور المرعبة التي كان من الممكن ألا ترى النور، لنحاكم بمنتهى العدالة الآثار المدمرة الممكنة للتلفاز، فيجب علينا أن نخضع وسائل الإعلام الأخرى، وكل نشاطات الأطفال لنفس إجراءات التحقيق، وسنلاحظ عندها أن المطالعة واللعب والمدرسة والرياضة ربما تحتاج إلى مُساءلة أيضاً..